مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 12، العدد 48 (خريف 2001)، ص 110

في الذاكرة

فيصل الحسيني

حنان عشراوي*

فيصل

رحيلك هو الصمت الفجائي الذي يلي مطر الربيع، هو الحرمان المفاجىء للأرض العطشى التي لم تكد تروي ظمأها بوعود المطر. عندما تحل الخماسين، تهب الرياح حارة وجافة، محملة بالغبار الأصفر لرمال الصحراء.

إننا في النطاق القاحل، مرحلة هشة تشوش الرؤية، فتصاب العينان بالحرقة وتتورم الألسن من العطش الذي يعتصر من الكلمات كل المعاني.

ولسوف تمرّ، أمّا ذكراك فستبقى.

ذكرياتي عنك غنية جداً ومتنوعة، لذا لن أحاول ترتيبها.

في لندن، تملصتَ ذات مرة من كل رجال الأمن والاستخبارات لتأخذ أمل، ابنة الرابعة عشرة التي هاجها الحنين إلى الوطن، إلى عشاء هادىء لا يعلم به أحد.

لقد أضحكْتها في تلك الليلة، لعبتَ دور المهرج أمام أميرتي المستوحدة، وجلست أنا، الأم الشاكرة، بهدوء وعيناي تدمعان امتناناً.

هتفتْ قائلة: "عمّو فيصل دمّه خفيف."

"ما أكثر ما تذكرين عنه؟" سألتها عندما اتصلت لاحقاً لتعزّي بفقدانه وتُعزّى.

* عضو المجلس الوطني الفلسطيني.

أجابت بهدوء: "كيف كان يلعب لعبة 'Game Boy' مع زينة." إن حنوه على أختها وولوجه عالم طفولتها ومشاركتها البراءة والعفوية، كل هذا استحال صورة ساكنة من الماضي.

وزينة، أيضاً، تتذكر. لم تشأ أن تخصه بذكرى معينة. وأجهشت قائلة "إنها طيبته الغامرة. لماذا قدّر له الرحيل؟ وهل يحمل موته رسالة ما؟"

كانت كلتاهما في الخارج، ولم تشهدا الطوفان البشري الذي اخترق كل الحواجز الإسرائيلية بأعلام فلسطين وأعلام الحداد في رحلة حجّك الأخير إلى بيت المقدس.

ما هكذا كنت أتصور عودتك، همستُ لك بصمت وأنا أسير مع الحشود المتدفقة إلى القدس.

وسط زحام حشود جماهير المشيعين الذي يعتصرني، لمست نعشك المغلق المحمول على أكتاف رجال بالزي الرسمي. شعرت بألم مختلف ولم أجدك هناك.

شاهدت جنازتك بعيونك المغمضة. قلت لإميل** لاحقاً: "لعله كان سيقول 'هذا جيد'." فأجابني: "جنازة تبعث على الفخر والاعتزاز لرجل متواضع."

يتذكر إميل كيف كنت تحب الفاكهة المجففة والنقولات عندما كنت تأتي للزيارة، أو لعقد اجتماعات سرية في منزلنا. كنت تقول: "علينا أن نعقد كل الاجتماعات في منزلكما. التمر وكعكات الجوز عظيمة." لكن الضرورات الأمنية كانت تحتم علينا تغيير أماكننا السرية في تحركات غير متوقعة. ولعل أكثر هذه التحركات فجائية وأقلها أمناً موتك، أو حركتك الأخيرة.

الآلاف المؤلفة زحفت إلى بيت الشرق من أجل وداعك الأخير. "إنه مقر قيادتنا، ويجب أن يتمتع بحصانة دائمة"، قلتَ لجيمس بيكر.

لكن لا عاصم لنا من الموت، ولا عزاء.

"إرفعا رأسيكما عالياً"، قلت وأنا أحبس الدموع معانقة ابنتك وابنك عبد، "لقد جعلنا أبوكما نشعر بالفخار" (وأنا فقدت أخاً وأعز الأصدقاء، بينما فقدت فلسطين ابنها القائد).

أردتَ أن يعثر ابناك على شريكي العمر وأن يتزوجا في حياتك. وتساءلت كأب حق: "من يستأهلهما"؟ وأجبتُ، وأنا أم لفتاتين، شبه مازحة: "لا أحد"!

** زوج السيدة حنان عشراوي.

لقد فُجعت نجاة، أم العبد. "أنتِ، أكثر من أي شخص آخر، تعرفين كم كان نبيلاً وجديراً بالاحترام." إنها تبكيك بكل جوارحها. تتذكر قائلة: "قلت له 'أنت كالنبي بالنسبة إليّ'. أتذكرين كيف كنت أرجوه: 'لا تذهب، لا تتركني. الأجواء غير آمنة'." وأنا أذكر.

أذكر أيضاً كيف كانت ترتسم على وجهكَ تلك الابتسامة المحبة الخاصة كلما ذكرت اسمها، نجاة. "إنها شديدة القلق". لكنك لم تكن تنسى الاتصال بها قط.

كانت تعرف المخاطر التي نركبها. "إعتني به. إنه لا يرحم نفسه." وقد حاولتَ قليلاً، لكنك لم تُعفِ نفسك قط من المشقة.

المستوطنون وحرس الحدود والجيش والشرطة واجهناهم كلهم. في مقدمة المسيرة (لحماية الآخرين الأقل شهرة)، الأيدي متشابكة (لرص الصفوف) حتى تُفرّقنا الهراواة والقبضات وأعقاب البنادق إلى أهداف أصغر. وغالباً ما كنا نصاب برضوض ونلهث من الغاز المسيل للدموع (وكان الربو عندك يثير أعظم المخاوف)، وتصاب عيوننا بالحرقة وعضلاتنا بالألم. كنا نتشبث بمواقعنا حتى تؤمّن إطلاق آخر موقوع في ذلك اليوم.

مصطفى وسامي وناصر وكثير غيرهم، كل الحراس الشخصيين المخلصين والأصحاب والأبناء – إنهم يتألمون من أجلك الآن كما لا يفعل إلاّ الأبناء المتيتمون. لقد حمَوْك بأجسادهم فيما مضى، وها هم يحملون نعشك من رام الله، يركضون ويبكون وتجحظ عيونهم غير مصدقين.

انتقلتَ من الصفوف الأمامية لتُرفع عالياً فوق رؤوس المشيعين، ثم تُوارى الثرى إلى جانب والدك. المكان الخلفي الوحيد الذي شغلته كان خلف صفوف المباهاة والخُيَلاء. كان كثيرون من "القادة" ورجال الحاشية والساعين وراء الشهرة والثروة يتدافعون من أجل مقعد في الصف الأمامي وعلى وجوههم ابتسامات كاذبة وحماسة جوفاء. وكنت تنحني خارجاً لا يكاد يلاحظك أحد سوى أولئك الذين يهتمون بالقيادة الحقيقية والتواضع، كنت ترقب ألعابهم التافهة بإشفاق وتسامح حميد.

وكم وبّخْتُ وقد اثارت سخطي الخناجر التي تطعنك في الظهر باستمرار (يثير فيّ ذلك تأنيب الضمير اليوم)، "واجههم! إكشفهم على حقيقتهم. فأنت تعرف الوجوه الحقيقية وراء الأقنعة." وكنت تبتسم، وهو ما يزيد في سخطي وانزعاجي. الآن عرفتك أكثر. لقد تفوقت عليهم لأنك كنت الأفضل فعلاً.

يهزأ الكثرون: "كيف يدير المسيحيون الخد الآخر!" أخبرتني تانيا عندما استيقظت أنك كنت تحمل وجه قديس وصورة أيقونة. لم تنصفك هذه الملصقات، إلاّ فيما خص الحزن في عينيك. لقد التُقطت في ساعة غفلة.

كنتَ دائماً تستشعر دنو الموت متسائلاً عن هوية المشيعين وعددهم. لم تُترك لحالك. صفوف تلو الصفوف من الحزن الصادق والمشاعر غير المتكلفة تدفقت نحو القدس في أرتال لا تكاد تنتهي.

الشمس والحرارة والخماسين كانت لافحة، مثل موتك الذي أثار في نفوسنا الحرقة.

ما كان يمكن أن يحول حاجز دون تقدمهم، ولا نقطة تفتيش عسكرية أو بطاقة هوية ذات لون مغلوط فيه. لقد تدفق المد البشري وانحسر الاحتلال الإسرائيلي. وتحققت بموتك معجزة التحرير الموقت للقدس. فما من احتلال يمكنه كبح حزن الناس المفجوعين والمخلصين الذين عقدوا العزم، بدافع الحب لك، على حملك إلى مثواك الأخير في مدينتك الخالدة.

يا ابن القدس وأبي القدس، أبناء القدس يبكون دولتهم الوليدة التي تيتمت. ومثل أبيك وجدّك من قبل، ما من مكان آخر في الأرض يمكن أن يضم رفاتك في العناق الأخير.

في الحرم، قدس الأقداس، وجدت الملاذ في نهاية المطاف. وعلى مرأى من قبة الصخرة الذهبية الساطعة (التي رفرفت عليها أعلام فلسطين وأعلام الحداد التي رفعها فتى فلسطيني شجاع متحدياً الجاذبية)، شققت طريقك وسط أناشيد المحبين وصراخهم ودموعهم وهتافاتهم.

لم يكن في وسعي الوقوف طويلاً، وما كان يسعني سماع الخطب إلاّ بأذنيك، مثلما لم أر الجنازة إلاّ بعينيك. ناولني أحد المصلين الكرام كرسياً، وشاهدت عبد شامخ الرأي يقول لنفسه ولأخته بصمت "تجلّدي". أجلسته بجانبي في الخلف بينما الخطباء يملأون مقدمة المنصة.

قال: "لقد دُفن في الأقصى"، ونظر أحدنا إلى الآخر بارتياح. كان كلانا يعرف أن أعظم مخاوفك أن يُحال بينك وبين مثوى العائلة. "إرادة الشعب هي التي أوصلته إلى هنا، ولم تكن الغلبة للاحتلال الإسرائيلي"، قال عبد. وفي المقابلة التلفزية الأولى في تلك الليلة، كرر عبد تلك الكلمات. ليس لديك ما تخشاه الآن، يمكنك أن تكون فخوراً.

إننا الآن محاصرون. لا يمكننا الوصول إلى القدس أو بيت الشرق كي نعزّي ونعزّى. أحاول الخروج من سجوننا الجماعية. أكلّم فدوى بالهاتف. (إنها تحاول التجلّد من أجل أمها). ولا تزال نجاة تتساءل عن معنى الحياة بعد فيصل، وأنت لست هنا لتواسيها. مصابها عظيم جداً، ولا يسعني تخفيفه.

أنت حر الآن، لا يعوقك حصار أو سجن، ولا سلك شائك أو حاجز – وقد خبرتها جميعاً. اتصل كثيرون من محاوريك – إسرائيليون وأوروبيون وأميركيون – وقد شعروا بخسارة شخصية. أتذكّر نُبلك عندما تحدثت إلى رئيس في البيت الأبيض، مثلما أتذكر تواضعك أمام المقدسي الذي هُدم منزله، وأتذكر تعاطفك وأنت تواسي أماً حُكم على ابنها بالسجن مدى الحياة، وأتذكر حكاياتك وطرائفك وسط المفاوضات الجادة.

كثرة الأشياء التي نذكرها لن تحوّلك إلى ذكرى، بل ستبقى قوة من أجل الحرية، ودافعاً للكرامة، وجوهراً للإنسانية. ستظل مصدر القيادة المستمدة من الخدمة، ومنبع القوة من خلال التواضع.

كان يجدر بك البقاء، لكنك غادرتنا ورياح الخماسين تهب، والأرض تتشقق من تحت أقدامنا.

ليس لديّ نقاط أكتبها، ولا أوراق استراتيجية أُعدّها، ولا اجتماعات للسياسة أنظّمها (لا تزال نكتك "Tink Tank" ماثلة في ذهني). هذه الملاحظات الشخصية يجب أن تكون كافية. أيّ كلام يوفّيك حقك؟■

4 حزيران/ يونيو 2001

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx